توجيه القراءات القرآنية الشاذة وأثره في الدّراسات اللّغوية –المحتسب لابن جني أنموذجًا–

Orientation of the odd Qur'anic recitations and its impact on linguistic studies - al-Muhtasib of Ibn Jinni as a model

مختار بزاوية، مصطفى مسيردي

[1] جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر (الجزائر)، mokhtar.bezzaouya@univ-mascara.dz

[2] جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس (الجزائر)، mmesirdi@gmail.com

تاريخ الارسال 2023/08/01	تاريخ القبول 2023/12/06	تاريخ النشر 2023/12/15

الملخص		**Abstract**
يعالج هذا البحث جهود علماء اللغة والنحو في توجيه القراءات القرآنية الشاذة وأثر ذلك على الدرس اللغوي، واخترت هنا أنموذجا وهو كتاب "المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها" لابن جني، الذي تتبع القراءات الشاذة وقام بتوجيهها في براعة منقطعة النظير، بلمسة اللغوي الحاذق والنحوي البارع. وقد بينت هنا كيف ساهمت توجيهاته في إثراء اللغة في عدة جوانب أهمها: المعجمي، والدلالي، والصرفي، والنحوي، والبلاغي.		This study aims to address the work of Arabic linguists and grammarians in guiding odd Qur'anic recitations. We have chosen Ibn Jinni's masterful work entitled « al-Muhtasib» as our model for this study. The work carried out by Ibn Jinni is unparalleled, not least because of his touch as an outstanding linguist and grammarian. We have managed to demonstrate how this difference in recitation has enriched the language in its various aspects: lexical,semantic, syntactic, grammatical ext..

كلمات مفتاحية: القراءات؛ الشاذة؛ المحتسب؛ ابن جني؛ التوجيه.		**Keywords** : recitations; odd; Al-Muhtasib; Ibn Jinni; orientation.

المؤلف المرسل: مختار بزاوية، **الإيميل**: mokhtar.bezzaouya@univ-mascara.dz

1. مقدمة:

كان القرآن الكريم ولا يزال محطّ أنظار الدارسين، ومناط بحثهم في كل زمان ومكان، فهو المعين الذي لا ينضب لكل المعارف والعلوم، والسّبيل لمن أراد نشْد الحقيقة وجدَّ في طلبها، وسعى إلى خيري الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[سورة فصلت/الآية 42].

ورغم احتفاء أسلافنا بالقرآن الكريم واهتمامهم به، إلاّ أنّ فترة الفتوح الإسلامية جلبت إلى الإسلام شعوبا أخرى، انصهرت فيه حاملة معها اعوجاج لسانها ولُكْنَتها في النّطق بلغة الضّاد، فنالَ القرآنَ بعضُ الاختلاف في التّهجية، فضلا عن القراءة الصّحيحة السّليمة، ممّا جعل أخيار هذه الأمّة وعلماءها يهبّون لصون القرآن الكريم والدفاع والذّود عنه، ولم يؤتِ هذا العمل ثمرته، إلاّ عند قيام حركة التّأليف والتّدوين حول كتاب الله، والعلوم المنبثقة عنه.

ومع بدء حركة التأليف تعدّدت علوم القرآن ومباحثه، ولقي علم القراءات منها اهتماما كبيرا، فأُفردت له التّصانيف العديدة، وانبرى للبحث فيه جمهرة من العلماء و الدّارسين، على اختلاف مذاهبهم وتنوّع اتّجاهاتهم الفكرية والأدبية، من قرّاء، ومفسّرين، ولغويين، ونحويّين، وأصوليّين، يتناولونه بالدّراسة والتّحليل قديما وحديثا.

وفي هذه الورقة البحثية ركّزتُ على الجهود التي بذلها علماؤنا في توجيه بعض القراءات القرآنية، باعتبار هذه القراءات الصحيحة والشاذة مصدرا لهذه القواعد التي قعّد لها النّحاة واللغويون، وهذه الجهود اجتمعت في كتب خاصة ككتب الاحتجاج، وتفرقت في مواضع أخرى ككتب النحو واللغة والتفسير، واخترت هنا كتاب "المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها" لأبي الفتح عثمان ابن جني المتوفى سنة 392 هجري الذي أفرده لتوجيه القراءات الشاذة.

وما قام به ابن جني في هذا الكتاب عمل جبار ينمّ عن قدرة فائقة وبراعة منقطعة النظير لهذا العلم الفذ، الذي أثرى المكتبة العربية بمصادر متعدد في ميادين شتى، ولا تخفى جهوده اللغوية والنحوية وغيرها على القريب والبعيد. معتمدا المنهج الاستقرائي القائم على الوصف والتحليل.

2. تعريفات ومفاهيم

1.2 التوجيه لغة واصطلاحا:

التوجيه لغة مصدر يُوَجّه، توجيًها، فهو مُوجِّه، والمفعول مُوَجَّه، ويأتي بمعنيين : الأول: وجَّه الشيءَ أي: جعلَه إلى جهة [1]، ومنه قوله تعالى: (**أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ**)[سورة النحل/الآية 76]، والثاني: وجَّه الشيءَ أي: بيَّن وجهه، أو جعلَه ذا وجه، أي شَّرفه وعظّمه [2]. وأمّا اصطلاحا فالتوجيه عند علماء القراءات هو "علم يُقصَد منه تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنها والانتصار لها" [3]. فالتوجيه هو جَعْلُ الكلام موجَّها ذاَ وجه وَدلِيل، إذ يختص ببيان الوجه المقصود من القراءة في اللغة والتفسير، أو تلمّس الأوجه المحتملة التي يجرى عليها التغاير القرآني في مواضعه، سواء كانت هذه الوجوه نقلية أم عقلية[4].

وعرّفه (د. عبد الله الخولي) بأنّه ذكر الحالات والمواضع الإعرابية وبيان أوجه كل منهما وما يؤثر فيهما، وما يلزم ذلك من تقرير وتفسير أو تعليل أو استدلال أو احتجاج، سواء صِيغَ ذلك في قواعد تضبطه وتُنظّر له أم لم يُصَغ، فتعريف التوجيه لدى الباحث ينصبّ أساسا على الإعراب، ثم يأتي بعد ذلك كل ما يتّصل به من مؤثرات وما يحتاجه من تفسير وتعليل [5]. ومعنى هذا أنّ النحوي قد تَعرِض له قراءة قرآنية بأكثر من وجه إعرابي، كأنْ ترد بالرفع والنّصب أو بغير ذلك، فيحاول أن يُعمِل فكره النّحوي لإيجاد حل يؤمّن من خلاله تفسيرا يجعل الحالة الذهنية المدروسة تتطابق والقواعد النّحوية التي يحتكم إليها مذهبه النّحوي، فيجعل للنص وجهاً مقبولاً في العربية، جائزاً عند دارسيها.

والباحث في توجيه القراءات يجد أنّه قد ذاعت لهذا الفن أسماء أخَر، غير توجيه القراءات مع أنّ الهدف واحد، منها: الاحتجاج، والانتصار للقراءة، ومعاني القراءات، وإعراب القراءات، وعلل القراءات، ونكات القراءات[6]. وقد اجتمعت هذه الأسماء كلها تحت مصطلح "الاحتجاج" الذي كان أعمّها دلالة، وأشيعها انتشاراً في محيط الدراسات اللغوية، سوى أن بعض علمائنا المتأخرين قد آثروا استعمال مصطلح "التّوجيه" على مصطلح "الاحتجاج"؛ لئلا يُوهم أنّ ثبوت القراءة متوقّف على صحة تعليلها؛ ولشيوع هذا المصطلح في مجال الدرس اللغوي، وارتباطه بأكثر من مصدر من مصادره عمدوا إلى تمييز القراءات من ذلك بمصطلح التوجيه، بل ذهبوا إلى تخصيصه بالبحث في وجوه المعاني المترتبة على اختلاف القراءات[7].

وهذا العلم غايته بيان وجوه القراءات القرآنية، واتفاقها مع قواعد النحو واللغة، ومعرفة مستندها اللغوي تحقيقا للشرط المعروف (موافقة اللغة العربية ولو بوجه)، كما يهدف إلى ردّ الاعتراضات والانتقادات التي يُوردها بعض النّحاة واللغويين والمفسّرين على بعض وجوه القراءات [8]. ومن أمثلة هذه

التوجيهات ما جاء في تفسير (الإمام الشوكاني ت 1250هـ) في معرض تناوله لقوله تعالى: (**واتّقوا اللهَ الَّذِي تَسَّاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ**)[النساءآية01]، إذ يقول: "وقرأ النّخعي وقتادة والأعمش وحمزة (والأرحام) بالجر، وقرأ الباقون بالنصب، وقد اختلف أئمّة النّحو في توجيهه قراءة الجر، فأمّا البصريون فقالوا: هي لحن لا تجوز القراءة بها، وأما الكوفيون فقالوا هي قراءة قبيحة.."[9].

ومما يجب التنبيه إليه هو أنّ النحويين قد تجرؤا في بعض الأحيان على القراء ونعتوا بعض قراءاتهم بأوصاف لا تليق والبحثَ العلمي، خاصة إذا علمنا أن القراءة سنة متبعة باتفاق جميع علماء القراءات، وأغلب النحويين، فوجب البحث عن وجوه مناسبة لتوجيه هذه القراءات المروية بسند متصل إلى رسول اله صلى الله عليه وسلم، لا تخطئتها ونسبها إلى اللحن أو ما شابه ذلك.

2.2 أنواع التوجيه:

إنّ وجوه القراءات وعللَها متنوعة، فتارة يكون التوجيه فيها نحويّا يتعلّق بإعراب الكلمات، أو صرفيّا يتعلّق بوزن الكلمة واشتقاقها، أو صوتيا يتعلّق بلغات ولهجات العرب، إلى غير ذلك من التوجيهات الفقهية والبلاغية، وسأكتفي بالنّحوي والصرفي منها:

- **التّوجيه النّحوي:**

يهتمّ بمواقع الكلمات وتغيرّ وظيفتها داخل تراكيبها، وقد اهتم النحّاة بالقراءات منذ نشأة النّحو، حتى كان من النّحاة من هم قُرّاء ابتداءً، ولعلّ اهتمامهم بهذه القراءات وجّهَهُم إلى الدراسة النّحوية واللغوية للملاءمة بين ما رووا من القراءات، وبين ما سمعوا من كلام العرب [10]. ويرى (د.سعيد الأفغاني) أنّه على أهل النّحو أن يحتجوا بالقراءات القرآنية على صحة النّحو لا العكس، فالقراءات مجال رحب للاستشهاد على القواعد النّحوية، بل على تأصيلها لأنّ سندها الرواية، فكانت بذلك مصدرا للاستشهاد يُثري اللغة[11].

- **التّوجيه الصرفي:**

يُعتبَر علم الصّرف من علوم اللغة الضرورية لتوجيه القراءات القرآنية، فهو يتعلّق بوزن الكلمات واشتقاقها وهذه لها تأثير كبير في المعاني [12]. قال (الزمخشري ت538هـ)في تفسير قوله تعالى: (**يَومَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمَامِهِمْ**)[سورة الإسراء/ الآية 71]: "ومن بِدع التّفاسير أنّ الإمام جمع أم، وأنّ الناس يُدعون يوم القيامة بأمّهاتهم، لأنّ هذا جهل بالتّعريف فأمّ لا تجمع على إمام"[13] .

3.2 بين التوجيه والاختيار:

استعمل علماء التوجيه مصطلح "الاختيار" بعد توجيههم للقراءات وبيان الحجة لكل منها، كأنْ يقال: "والاختيار عندي قراءة كذا"، كما كان يفعل مكّي بن أبي طالب وابن خالويه، ومن قبلهما (الإمام الطبري ت310هـ) وغيرهم. وهم يقصدون بذلك الوجه المُرجّح والذي له أولوية القبول من بين وجوه القراءة، وبالتالي يُؤدّي هذا إلى تفضيل قراءة صحيحة على قراءة مثلها، ويُقرّون بجواز تفاضل القراءات المتواترة[14] . وهو ما رفضه المحققون من العلماء، وهبّوا لتصحيح هذا الفهم.

ومن هؤلاء (الزركشي ت 794هـ) الذي يرى أنّ ترجيح إحدى القراءتين على الأخرى ترجيحا يكاد يُسقِط القراءة الأخرى غير مرضيّ لأنّ كلتيْهما متواتر تان، ونقل عن (أبي شامة ت 665هـ) قوله: "قد أكثر المُصنِّفون في القراءات من الترجيح بين قراءة (ملك) و (مالك) حتّى أنّ بعضهم يبالغ إلى حدّ يكاد يُسقط وجه القراءة الأخرى، وليس هذا بمحمود بعد ثبوت القراءتيْن"[15].

أما الاختيار عند المشتغلين بعلم القراءات، فله مفهوم آخر ، حدّده هؤلاء العلماء بأن يعمَد من كان أهلاً إلى القراءات المروية، فيختار منها ما هو الراجح عنده، ويُجرِّد من ذلك طريقاً في القراءات على حدة[16]، قال (القرطبي ت 671هـ) في تفسيره: "وهذه القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء، وذلك أن كل واحد منهم اختار ممّا روي وعلم وجْهُهُ من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه وعرف به، ونسب إليه، فقيل حرف نافع وحرف ابن كثير"[17].

إذن فاستعمال مصطلح الاختيار مقبول في مقام الرواية لا في مقام التوجيه، لأن استعمال الثاني في التعامل مع القراءات، يؤدي إلى خلل منهجي مرفوض خاصة إذا كانت القراءتان متواترتين.

4.2 فائدة علم التوجيه:

يرى (ابن جني ت392هـ) أنّ توجيه القراءات فن جليلٌ به تُعرف جلالة المعاني وجزالتها، لايسبر غوره إلاّ من شَمخ علمه، واستحكمت لديه بوادر الصنعة، واقترب من الإحاطة بمكنون اللغة، فيصبح من السهل عليه إيجاد وجه سائغ في العربية" فيَرجع في أمرها إلى اللغة، يلتمس لها شاهدا فيرويه، أو نظيرا فيقيس عليه، أولهجة فيردّها إليها ويُؤنسها بها، أو تأويلا أو توجيها فيَعرِضُه في قصد وإجمال أو تفصيل وافتنان[18]. ويقول (الزركشي) في توجيه القراءات المتواترة وتبيين الوجه الذي ذهب إليه كل قارئ: "..هو فن جليل، وبه تُعرَف جلالة المعاني وجزالتها، وقد اعتنى الأئمة به، افردوا فيه كتبا منها "الحجة" لأبي علي الفارسي، وكتاب "الكشف" لمكي.."[19].

5.2 الأسباب الباعثة على التأليف في علم توجيه القراءات والاحتجاج لها[20]:

من أهم الأسباب التي دفعت باللغويين والنحويين إلى تأليف كتب التوجيه والاحتجاج نذكر ما يلي:

- الرغبة الملحة للكشف عن معنى القراءة من حيث التفسير، والإعراب، واللغة.
- الدفاع عن القراءات القرآنية والانتصار لها للكشف عن حججها وعللها ومعانيها استشهاداً بآيات القرآن الكريم، وقواعد اللغة، وأشعار العرب؛ رداً على الشبهات والترهات التي يثيرها الملحدون والمستشرقون الذين يتحينون الفرص للغض من قدر القرآن الكريم، والتشكيك فيه.
- تخريج وجوه القراءات الصحيحة المتعددة والاستدلال على صحة سندها وتواترها.
- الجمع بين القراءتين المختلفتين وردهما إلى معنى واحد إن أمكن أو التوفيق بين المعنيين المختلفين.
- توجيه مشكل القراءات والاحتجاج لها دفعاً لإيهام التعارض والتناقض بين وجوه القراءات.
- الرد على من اشتبهت عليه قواعد النحو ووجوه التفسير فطعن في القراءات بحجة مخالفتها النظر والقياس

6.2 مفهوم القراءة الشاذة:

اختلف العلماء في تحديد معنى القراءة الشاذة، وذلك على النحو التالي:

- أنّ الشاذ هو ما فقد تواتره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذهب إلى ذلك جمع من العلماء ومنهم السخاوي (ت 643هـ)، ووافقه ابن الصلاح (ت 643هـ) حين ذكر أن القراءة الشاذة "ما نقل قرآنا من غير تواتر واستفاضة متلقاة بالقبول من الأمة"، وقريب من هذا الرأي ما ذكره ابن الحاجب(ت646هـ) من أنّ الشاذ هو نقل آحاد، وإليه ذهب ابن دقيق العيد(ت 702هـ)، حيث قال: "وهذه الشواهد نقلت نقل آحاد"[21].
- أنّ الشّاذ هو " ما خالف الرسم أو العربية، ونُقل ولو بثقة عن ثقة، أو وافقهما، ونقل بغير ثقة، أو بثقة ولم يشتهر"، وهذا ما ذكره مكي بن أبي طالب القيسي في الإبانة، وهو يقصد بذلك أن الشاذ ما خالف رسم المصحف الإمام المجمع عليه، فهذا وإن كان صحيح الإسناد مشتهرا إلا أنه شاذ لكونه شذّ عن رسم المصحف[22].
- أنّ القراءة الشاذة هي "كل قراءة فقدت ركنا أو أكثر من أركان القراءة الصحيحة، وهي التواتر ورسم المصحف العثماني ولو احتمالا، موافقة وجه من وجوه اللغة العربية" [23]، وهو مذهب جمهور علماء

القراءات، قال أبو شامة: "كل قراءة ساعدها خط المصحف مع صحة النقل فيها ومجيئها على الفصيح من لغة العربية، فهي قراءة صحيحة معتبرة، فإن اختلت هذه ا الأركان الثلاثة أطلق على تلك القراءة أنها شاذة وضعيفة أشار إلى ذ لك أئمة المتقدمين" [24]، وقد نظم ابن الجزري ذلك في طيبته فقال[25]:

فَـكُـلُّ مَـا وافـق وجْـه نَـحـوٍ وكَان للـرَّسـمِ احـتِـمـالا يـحْـوي
وصـحّ إسْـنـادا هـُـو الـقـرآنُ فـهـذه الـثـلاثـةُ الأركـانُ
وحـيـثُـمـا يـخـتَـلّ ركـنٌ أثـبِـتِ شُـذوذَهُ لـو أنّـه فـي الـسّـبْـعـةِ

وبناء على هذا، أجمع العلماء على تواتر القراءات العشرة، وشذوذ ما عداها.

3. توجيه القراءات الشاذة في المحتسب:

1.3 سبب تأليف كتاب المحتسب وموقفه من القراءات الشاذة:

يؤمن ابن جني كغيره من النّحاة بأن القراءة سنّة [26] متّبعة، يأخذها الآخر عن الأول، وأنّ قبولها والمصير إليها واجب، بوصفها وجوها صدرت عن النبي صلى الله عليه وسلم [27]، ويرى أنّ القراءات التي انتهى إليها عصره ضربان: ضرب اجتمع عليه أكثر قراء الأمصار، وهو ما أودعه أبو بكر بن مجاهد كتابه (السبعة)، وضرب ثان تجاوز ذلك فسمّاه أهل زمانه شاذا[28].

ويوضح ابن جني في مقدمته لكتاب المحتسب فهمه لمعنى ما يُسمّى شاذًّا، فيرى أنه ما خرج عن قراءة القرّاء السبعة، ويصف قُرّاءه بالتوثيق، وأنه مروي بالأسانيد إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه فصيح، وربما كان أفصح من الصحيح، وهو قوي الرواية، ذو قدم راسية في النحو؛ ولذلك قرأ به قُرّاء مشهورون، ويصف خلال ذلك ما قرأ به السبعة الثقات بأنه مجتمع عليه ومُقَرٌّ به[29].

وربما أثارت حفيظتَه معاني التنكر والرفض لجزء من القراءات المتصلة بأوثق الأسانيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والموافقة لوجه من وجوه العربية، فقام مدافعا عنها ووضع كتابا مستقلا يحتج لها، فصنّف: "المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها"، يقول في هذا الشأن: ""إلا أنه مع خروجه عنها نازع بالثقة إلى قرائه، محفوف بالروايات من أمامه ووراءه، ولعله أو كثيرا منه مساوٍ في الفصاحة للمجتمع عليه. نعم وربما كان فيه ما تلطّف صنعته، وتعنّف بغيره فصاحته، وتمطوه(تمدّه) قوى أسبابه، وترسو به قدَمُ إعرابه"[30].

فالقراءات القرآنية الشاذة لا تعني عند ابن جني أنها قائمة على لهجة شا ذة، وإنما هي ما لم يذكره ابن مجاهد في كتابه "السبعة"، أما صلة القراءات –مشهورها وشاذها– باللهجات فهي صلة وثيقة، إذ إنّها من العلوم التي ينبغي الاعتماد عليها في دراسة العربية الفصيحة؛ وأنّ رواياتها من أوثق الشواهد على ما كانت عليه ظواهرها الصوتية و الصّرفية والنّحويّة، واللغوية عامة، في مختلف اللهجات، بل إنّ من الممكن القول إنّ القراءات الشاذة هي أغنى مأثورات التراث بالمادة اللغوية، التي تصلح أساسا للدراسة الحديثة، التي يلمح فيها المرء صورة تاريخ اللغة الخالدة[31].

وهذا ما سجّله أبو الفتح لنا في كتابه "المحتسب"، فهو نظر إلى المادة اللغوية الثرة التي ضمتها تلك القراءات نظرة موضوعية، ولفت النظار إلى ما خفي من أسرار اللسان العربي في تلك الروايات اللغوية المتعددة الأسانيد، وراح يلتمس لها الوجوه، وحين لم يجد لها ت وجيها مقبولا لديه فهو يعلّل ضُعف هذه القراءة، أو تلك، قياسا بنظيرتها المشهورة[32].

وأيّدَ السيوطي هذه النظرة الموضوعية إلى الشاذ؛ إذ نقل عن إسماعيل بن إبراهيم القراب في الشافي أنّ: "التمسك بقراءة سبعة من القرّاء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سنّة، و إنّما هو من جمع بعض المتأخرين، فانتشر وأوْهم أنه لا تجوز الزيادة على ذلك، وذلك لم يقل به أحد"[33].

وابن جني بهذا العمل لم يرد الطعن في ما تواضع عليه العلماء من قبله، أو تجويز القراءة بالشاذ، وإنما لم يرض أن تكون هذه القراءات الشاذة موضع اتهام واستهجان مادامت روايتها صحيحة وعربيتها سليمة، يقول: "ولسنا نقول ذلك فسحا بخلاف القراء المجتمع في أهل الأمصار على قراءاتهم، أو تسويفا للعدول عمَّا أقرّته الثِّقات عنهم، ولكن غرضنا منه أن نُري وجه قوّة ما يُسمَّى الآن شاذا، وأنه ضارب في صحة الرواية بجرانه، آخذ من سمت العربية مُهلة ميدانه، لئلا يُرى مُرَّى أن العدول عنه إنما هو غضٌّ منه أو تهمة له"[34].

إضافة لما ذكرنا يمكن تلخيص أسباب تأليف هذا الكتاب فيما يلي[35]:

- رغبته في إعادة الثقة اللغوية بالقراءات الشاذة.
- رغبته في تأليف كتاب لم يسبقه أحد في منهجه إليه، إذ إنّه يرى أنّ من سبقوه لم يُفردوا كتابا مقصورا على الاحتجاج، ولم يتجردوا للانتصار للقراءات وإيضاح أسرارها وعللها.
- رغبته في إكمال مَهمَّة شيخه أبي علي الفارسي الذي وضع كتابا في الاحتجاج للقراءات السبع، ورغب في وضع كتاب مماثل له في الشواذ، فحالت مشاغل الدهر بينه وبين رغبته.

- كثرة الطعن على وجوه الشواذ من النحاة والعلماء قبله، كأبي حاتم السجستاني وابن مجاهد وأبي جعفر النحاس.
- مقدرة ابن جني العلمية المعروفة في اللغة والنحو والصرف، وبراعته في التحليل والتعليل والقياس، وثقافته الواسعة المتفرعة التي تميز بها القرن الرابع من سائر القرون.

2.3 مصادره في الشواذ[36]:

اعتمد ابن جني في نقل القراءات الشاذة على أربعة مصادر هي:

- كتاب أبي علي محمد بن المستنير قُطرُب (ت206هـ).
- كتاب معاني القرآن للفراء (ت207هـ).
- كتاب أبي حاتم سهل بن محمد بن عثمان السِّجستاني (ت250هـ).
- كتاب معاني القرآن للزّجاج (ت310هـ).
- كتاب أبي بكر أحمد بن موسى بن مجاهد (ت324هـ).

3.3 منهج الكتاب في توجيه القراءات الشاذة:

استهل ابن جني كتابه "**المحتسب**" بمقدمة موجزة بين فيها منهجه في النظر إلى القراءات، والغاية التي رمى لها كتابه، وأشار إلى صنيع من تقدمه في هذا الميدان، وإلى مصادره التي اعتمد عليها في اختيار قراءاته، ثم شرع بتوجيه الشواذ مبتدئا بسورة الفاتحة ومختتما بسورة الناس. وقد أورد ابن جني القراءات مرتبة حسب مواقعها في كل سورة، وكان يبدأ حديثه في كل مرة بإثبات أسماء القراء، ثم يذكر القراءة، ومثال ذلك قوله:" ومن ذلك قراءة أبي الحسن وأبي رجاء وقتادة وسلام، ويعقوب وعبد الله بن يزيد والأعمش والهمذاني" ويعتمد في إيراد أسماء القراء على المتقدمين ثم الذين يلونهم، وغالبا يرتبهم حسب مواطنهم، فقد ذكر هنا البصريين ثم عقب بالكوفيين (الأعمش والهمذاني)[37].

أما منهج ابن جني في توجيه القراءات القرآنية فلا يختلف عن منهجه الحر في اللغة عامة، ذلك المنهج الذي ينم على عقلية فذة بارعة، إذ إنّه يوظّف معرفته بدقائق العربية، و إحاطته بأسرارها، للكشف عن المعاني البلاغية الرائعة التي تقف وراء اختلاق القراءات القرآنية، وهو لا يقنع بالمعاني التي ألِفَها النحاة وتعارفوا عليها، بل نجده يوظ ف مقدرته العلمية المعروفة في اللغة عامة، وفي النحو والصرف خاصة، كما يوظف براعته في التحليل والتعليل والقياس، من أجل أن يستطلع اللغة، ويستكشف آراءها الكامنة، لذا تجده يؤكّد ارتباط النحو بالمعاني[38].

وقد عبّر السيوطي في الاقتراح عن منهج ابن جني هذا في توجيه القراءات الشاذة بقوله: "أما القرآن فكل ما ورد أنّه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواترا أم آحادا أم شاذا وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياسا معروفا بل ولو خالفته ويُحتجّ بها في مثل ذلك الحرف بعينه، وإن لم يجز القياس عليه كما يُحتجّ بال مُجْمع على وروده ومخالفته في ذلك الوارد بعينه"[39].

وقد صرّح ابن جنيّ بأن كتابه هذا غير مؤلف ليجمع كل القراءات الشاذّة، وإنما يختار منها اللطيف الغريب الغامض. أما طريقته فيه فأنْ يورد فقط ما كان عدم وضوحه ظاهرًا، بأن يسوق روايته، ثم رواية غيره متحريًا في ذلك كله الأمانة وصحة الرواي ة. وقد اتسم منهجه في التعامل مع القراءات القرآنية وتوجيهها كما يلي[40]:

- يعرض القراءة ويذكر من قرأ بها.
- يلتمس الشاهد والنظير من القرآن، أو الحديث، أو الشعر، أو المثل، أو اللهجات، أو كلام الفصحاء، بتفصيل أحيانًا وباختصار أحيانًا أخرى.
- قد يردّ القراءة، أو يضعّفها إذا لم يجد للقراءة وجهًا يسكن إليه، أو إذا وجد في ذلك تكلفًا ومشقة.
- تمتاز لغته في الكتاب بجمال العبارة، وجزالة الأسلوب، وتدفق الألفاظ، ولا تخلو أحيانًا من بعض الغرابة.
- يأخذ ما ينقله عن اللغويين وغيرهم بالقبول تارة، وبالنقد والتحليل تارة أخرى، وربما كان النقد رفيقًا أو عنيفاً.

4.3 نماذج من توجيه ابن جني للقراءات الشاذة:

النموذج الأول– تقديم القرآن الكريم مصدرا للتوجيه وحمل النظائر عليه:

كان ابن جني يقدم القرآن الكريم مصدرا للتوج يه قبل أي شيء، فهو شديد الاحتراز بالذكر الحكيم، وأكبر دليل على ذلك أنه يرى وجوب حمل ما ورد في اللغة على القرآن لا العكس، فالقرآن متبوع لا تابع إذ يقول: "وينبغي للقرآن أن يُختَار له ولا يُختَار عليه"[41]، يقول في قراءة عاصم الجحدري: **(وَعَزَرْتُمُوهُمْ)** [سورة المائدة/آية 12][42]، بالتخفيف: "عَزَرْتُ الرجل أعزُرُهُ: إذا حِطْتُه وكَنَفْتُهُ، وعَزَّرْتُهُ:

فَخَّمْتُ أمرَهُ وعظَّمْتُه، وكأنّه لقُربه من الأزر وهو التقوية معناه أو قريبا منه، ونحوه عَزَرَ اللبنَ وحَزَرَ إذا حَمَض فاشتدّ، فانظر إلى تلامح كلام العرب وأعجب"[43].

ويلاحظ أن ابن جني قد اتكأ على قراءة حفص عن عاصم في تخريج الشواذ اتكاء و اضحا، وحمل أغلب وجوهها عليها، حيث وجد فيها متنفسا واسعا له في التماس الوجو هالنحوية المطابقة لوجوه الشواذ او القريبة منها، ورأى فيها موئلا خصبا لكثير من معاني القراءات الشاذة، ودليلا على توجيهاته النحوية وآرائه الفرعية، ومخرجا لكثيرمن الشواهد التي يفصّل القول فيها. وكان يكتفي في كل ذلك بالشاهد الواحد غالبا، ويزيد عليه إذا أحوجه المقام، كما كان يكرر بعض هذه الشواهد وفقا لطبيعة الموقف واستجابة لمقتضى الاستشهاد، كما أنه قد يحمل القراءة الشاذة على نظيراتها سواء من القراءات الفاشية أم الشاذة[44].

ومن أمثلة استشهاداته بالقرآن الكريم في مقام الاحتجاج للشواذ:

- احتجاجه لقراءة قتادة: (**بلْ مَكْرٌ اللَّيْلَ والنَّهَارَ**)[سورة سبأ/ آية 33]، بقوله تعالى: (**أَوْ إطْعَامٌ في يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مقْرَبَةٍ**)[سورة البلد/ آية 14-15]، حيث عمل المصدر المنون فيهما عمل فعله، فنصب مفعولا فيه[45].
- احتجاجه لقراءة أبي جعفر: (**يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يُذْهِبُ بِالأبْصَار**)[سورة النور/آية 43]. بقوله تعالى: (**ولاَ تُلْقُوا بِأيْدِيكُمْ إلَآ التَّهْلُكَةِ**)[سورة البقرة/ أية195]، إذ جاءت الباء فيهما زائدة[46].
- احتجاجه لقراءة الأعمش : (**وَإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تَقْسِطُوا**)[سورة النساء/آية 03] بفتح التاء، فقد وجّه هذه القراءة بزيادة (لا)، حتّى كأنه قال: وإن خفتم أنْ تَقْسِطوا في اليتامى، أي تجوروا يقال: قسط إذا جار، وأقسط إذا عدل. قال تعالى: (**وأمَّا القاسِطونَ فَكَانُو لِجَهَنَّمَ حَطَباً**)[سورة الجن/آية 15]. وزيادة (لا) قد شاعت عنهم واتسعت، منه قوله تعالى: (**لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ**)[سورة الحديد/آية29]، وقوله: (**وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ**)[سورة الأنعام/آية 109] فيمن ذهب إلى زيادة (لا)، وقال: وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون..والأمر فيه أوسع فبهذا يُعلَم صحة هذه القراءة"[47].
- رده تضعيفَ ابنَ مُجاهد لقراءة أبي العالية: (**لاَ تَنْفَعُ نَفْساً إيمَانُهَا**)[سورة الأنعام/آية 158] بالتاء فيما يروى عنه بأنها غلط. ورأى أنّ التأنيث فيها إنما جاء على المعنى. قال: و إن شئت حملته على

تأنيث المذكر لما كان يُعبَّر عنه بالمؤنث، ألا ترى إلى قوله سبحانه: (**فَلَهُ عَشْرُ أَمثَالِهَا**) [سورة الأنعام/آية160]، فتأنيث المِثل لأنه في المعنى حسنة...وعليه أيضا قوله تعالى: (**تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَارَةِ**) [سورة يوسف/آية10] لما كان البعض سيارة في المعنى".

النموذج الثاني– الاحتجاج للقراءات الشاذة بالحديث النبوي الشريف:

استدل ابن جني في كتابه "المحتسب" على بعض الوجوه بعدد من الأحاديث النبوية الشريفة، وكانت وقفاته تختلف عموما عن مواقف النحويين قبله في توجيهه للشواذ، على أنّ أغلب هذه الأحاديث كان يدور حول قضايا لغوية وصرفية بلاغية. ومن الأحاديث التي استدل بها احتجاجه لقراءة أبي سعيد الخدري: (**وَأَمَّا الغُلامُ فَكَانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَانِ**)[الكهف/آية80]، فقد ذهب إلى أنّ اسم (كان) هو ضمير الشان، وان خبرها هو جملة: (أبواه مؤمنان)، وقرر أنه لا حاجة إلى عودة ضمير من الجملة على اسم كان لأنّ ضمير الشان هو الجملة في المعنى. ثم استشهد لذلك بوجه من وجوه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولدُ حَتَّى يَكُونَ أَبَواهُ هُما اللَّذَانِ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ". قال:"..وإن شئت كان في (كان) ضمير الشأن والحديث، ما بعده خبر عنه"[48].

النموذج الثالث– احتجاجه للقراءات الشاذة بالشعر:

نال الشعر حظه الوافر من الاستشهاد للقراءات الشاذة في "المحتسب"، إذ عده ابن جني مصدرا هاما وقاعدة أساسية أخرى أسهمت في الكشف عن كثير من الوجوه، ولكنه يؤخره في الرتبة إن وجدت القراءات القرآنية. ومن استشهاداته بالشعر ما يلي:

- احتجاجه لقراءة ابن السميفع: (**وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرَى**)[سورة الفرقان/آية48]، للمصدر (بشرى) في وقوعه حالا بقوله تعالى: (**ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً**)[سورة البقرة/آية260]، وبقول امرئ القيس:

فَأَقْبَلَتُ زَحْفاً عَلَى الرُّكْبَتَيْنِ فَثَوْباً نَسِيتُ وَثَوْباً أَجُرُّ

- احتجاجه لقراءة الجحدري: (**بَلْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ لِمَا جَاءَهُمْ**)[سورة ق/آية05]، التي ذهب فيها إلى أنّ (اللام) بمعنى الظرف (عند). فقد استشهد لها أولا بقول الشاعر:

شَنِئْتُ العَقْرَ عَقْرَ بنِي شُلَيْلٍ إِذَا هَبَّتْ لِقَارِيهَا الرِّيَاحُ

ثم استشهد بآية قرآنية على غير عادته، فقد كان شأنه تقديم القرآن على الشعر، بقوله تعالى: (**لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ**)[سورة الأعراف/آية187][49]. ولعله قدّم الاستشهاد بالشعر لأن اللام في البيت لا تحتمل غير معنى (عند)، بخلاف اللام في الآية الكريمة فتحتمل معنى (في)[50].

- احتجاجه لقراءة رؤبة العجاج: (إِنَّ اللّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةٌ)[سورة البقرة/آية 26] بقول الشاعر(عدي بن زيد):

لَمْ أَرَ مِثْلَ الفِتْيَانِ فِي غَيرِ الـ أَيَّامِ يَنْسَوْنَ مَا عَواقِبُهَا

فقد استشهد به لحذف صدر الصلة (هو) العائد على (ما)[51].

4. خاتمة:

خلص هذا البحث إلى ما يلي من النتائج:

- توجيه القراءات فن جليلٌ به تُعرف جلالة المعاني وجزالتها، لايسبر غوره إلاّ من شَمخ علمه، واستحكمت لديه بوادر الصنعة، واقترب من الإحاطة بمكنون اللغة، فيصبح من السهل عليه إيجاد وجه سائغ في العربية.
- ظهر علم التوجيه وتطور عبر الزمن ونهض به جمهرة من العلماء من مفسرين ولغويين ونحويين وعلماء قراءات، يذبون عن القرآن الكريم ويلتسمون له أوجها لتخريج قراءاته الفاشية والشاذة نحويا وصرفيا وبلاغيا ودلاليا.
- لمّا ألّفَ ابن مجاهد كتاب "السبعة" عكف العلماء عليه وعدوا القراءات الخارجة عما اختاره شاذا لا تجوز القراءة به. لكن ابن جني ألّفَ كتاب المحتسب ليرد الاعتبار والشأن لهذه القراءات، لا خروجا عن إجماع العلماء على تلك القراءات المتواترة ، ولكن لِيَرُدّ الثقة اللغوية لهذه القراءات وأنّها مصدر للاحتجاج في اللغة والصّرف والنّحو..

- اتسم منهج ابن جني في المحتسب بالبراعة والفذلكة اللغوية، فهو يعرض القراءة ويذكر من قرأ بها، ثم يلتمس لها الشواهد والنظائر من القرآن، أو الحديث، أو الشعر، أو المثل، أو اللهجات، أو كلام الفصحاء، وقد يردّ القراءة، أو يضعّفها إذا لم يجد للقراءة وجهًا يسكن إليه.

قائمة المراجع:

[1] الفيروز آبادي، محمد، (2005)، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط8، بيروت، مادة وجه.

[2] عمر، أحمد مختار، (2008)، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط1، القاهرة، ج03، ص2406.

[3] المهدوي، أبو العباس، (1984)، شرح الهداية، تحقيق حازم سعيد حيدر، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ج01، ص18.

[4] المشهداني، محمد إسماعيل، (2013)، التجديد في توجيه القراءات القرآنية، مجلة جامعة زاخو، كردستان العراق، المجلد 01، العدد 02، 2013، ص؛ 259-260.

[5] راضي، سحر سويلم ، (2008)، التوجيه النحوي والصرفي للقراءات القرآنية عند أبي علي الفارسي في كتابه "الحجة للقراء السبعة"، دار الكتب المصرية، ط1، مصر، ص29.

[6] أحمد، بدر الدين عبد الكريم ، (دت)، علم توجيه القراءات، أسبابه ودواعيه وأشهر المؤلفات فيه، ص 03-04. الموقع: (https://drive.uqu.edu.sa/_/baahmed/files/8.pdf). اطلع عليه يوم: 2023/01/21.

[7] أحمد، سعد محمد التوجيه، البلاغي للقراءات القرآنية، ص23.

[8] مفلح القضاة، أحمد محمد، وآخرون، (2001)، مقدمات في علم القراءات، دار عمار، ط1، عمان، الأردن، ص201.

[9] الشوكاني، محمد بن علي فتح القدير، (2007)، اعتنى به وراجع أصوله يوسف الغوش، دار المعرفة، ط 4، بيروت ، لبنان، ص267.

[10] حسان، تمام، (2000)، الأصول، عالم الكتب، (دط)، القاهرة، ص97.

[11] ابن زنجلة ، أبو زرعة عبد الرحمن ، (2001)، حجة القراءات، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط 5، بيروت ، لبنان، ص15.

[12] أحمد، سعد محمد، (1997)، التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، مكتبة الأدب، ط1، القاهرة، مصر، ص29.

[13] الزّمخشري، جار الله، (1998)، الكشّاف، تحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوّض، مكتبة العبيكان، ط1، الرياض، ج03، ص537.

[14] ينظر: القيسي ، مكي بن أبي طالب ، (1984)، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، تحقيق محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، ط3، بيروت، ج01، ص07 وما بعدها. وابن خالويه، الحسين بن أحمد، (1979)، الحجة في القراءات السبع، تحقيق عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، ط3، بيروت، لبنان، ص82.

[15] الزركشي، بدر الدين، (دت)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، (دط)، القاهرة، مصر، ج01، ص341.

[16] القيسي، مكي بن أبي طالب ، (دت)، الإبانة عن معاني القراءات، تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر، (دط)، مصر، ص47-50.

[17] القرطبي، أبو عبد الله محمد ، (2006)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة ، ط1، بيروت، ج01، ص79.

[18] ابن جني، أبو الفتح عثمان ، (1994)، المحتسب في وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي نجدي ناصف، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، مطابع الأهرام التجارية، (دط)، القاهرة، مصر، ج01، ص12.

[19] الزركشي، بدر الدين البرهان في علوم القرآن، ج01، ص342.

[20] ينظر: أحمد، بدر الدين عبد الكريم، علم توجيه القراءات، أسبابه ودواعيه وأشهر المؤلفات فيه، ص06 وما بعدها.

[21] ينظر: العدوي، حمدي سلطان أحمد، (2006)، القراءات الشاذة دراسة صوتية ودلالية، دار الصحابة للتراث بطنطا، ط1، مصر، ج01، ص29.

[22] ينظر: القيسي، مكي بن أبي طالب الإبانة، ص18-19.

[23] أبو شامة، محمد، (دت)، إبراز المعاني من حرز الأماني، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، دار الكتب العلمية، (دط)، بيروت، لبنان، ص171.

[24] أبو شامة ، محمد، (1975)، المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، تحقيق طيار آلبتي لخولاج، دار صادر، (دط) بيروت، لبنان، ص171-172.

[25] النويري، أبو القاسم، (1986)، شرح طيبة النشر في القراءات العشر، تحقيق عبد الفتاح السيد سليمان، المطابع الأميرية، (دط)، القاهرة، مصر، ج01، ص112.

[26] ينظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان المحتسب، ج01، ص233.

[27] المصدر نفسه، ج02، ص306.

[28] المصدر نفسه، ج01، ص34.

[29] المصدر نفسه، ج01، ص31-36.

[30] المصدر نفسه، ج01، ص32.

[31] شاهين، عبد الصبور، (1999)، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، ص273.

[32] الحسناوي، غانم كامل سعود، (2009)، التوجيه النحوي للقراءات الشاذة في كتاب المحتسب لابن جني، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الكوفة، العراق، ص21.

[33] السيوطي، جلال الدين، (1967)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة فخر الدين، مصر ، ج01، ص207.

[34] ابن جني، أبو الفتح عثمان المحتسب، ج01، ص32-33.

[35] ينظر: العدوي، حمدي سلطان أحمد، (2006)، القراءات الشاذة دراسة صوتية ودلالية، دار الصحابة للتراث بطنطا، ط1، مصر، ص200-202.

[36] ينظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان المحتسب، ج01، 35-36.

[37] ينظر: الصغير، محمود أحمد، (1999)، القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي، دار الفكر، دمشق، ص203.

[38] الأوسي، قيس إسماعيل، (1988)، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، مطبوعات وزارة التعليم العالي، بيت الحكمة، بغداد، ص35-38.

[39] السيوطي، جلال الدين، (1976)، الاقتراح،في علم أصول النحو، تحقيق أحمد محمد قاسم، مطبعة السعادة، ط 1، القاهرة، ص58.

[40] الشريف، خير الله ، (دت)، مصطلح القراءة الشاذة في المحتسب ودعوى تردد ابن جني في المذهب، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد84، ص163-165.

[41] ابن جني، أبو الفتح عثمان، المحتسب، ج01، ص53.

[42] والقراءة المتواترة بالتشديد (عَزَّرْتُمُوهُمْ).

[43] ابن جني، أبو الفتح عثمان، المحتسب، ج01، ص208.

[44] الصغير، محمود أحمد، القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي، ص208

[45] ابن جني، أبو الفتح عثمان، المحتسب، ج02، ص193-194.

[46] المصدر نفسه، ج02، ص114.

[47] المصر نفسه، ج01، ص180-181.

[48] المصدر نفسه، ج02، ص33. والحديث في البخاري ومسلم.

[49] المصدر نفسه، ج02، ص282.

[50] الصغير، محمود أحمد، القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي، ص216.

[51] ابن جني، أبو الفتح عثمان، المحتسب، ج01، ص64.